مسابقة الجامعة المصرية

لطلبة السنة التوجيهية

للدكتور زكي مبارك

— ٢ —

نحن اليوم أمام كتاب « وحي الرسالة » لحضرة الأستاذ أحمد حسن الزيات ، وهو مختار من افتتاحيات « الرسالة » في ست سنين ، ويقع في ثمانين وأربعمائة صفحة من القطع المتوسط ، ويشتمل على نحو عشرين ومئة مقالة ، فهو محصول غزير لا يستوعبه طلبة السنة التوجيهية إلا إذا أقبلوا عليه إقبال من يدرك ما فيه من معان وأغراض ، وذلك ما نحاول تيسيره على الطلبة في هذا المقال الوجيز

الأسلوب

هو أسلوب كاتب يؤمن بأن الكتابة فن من الفنون ، فهو لا يكتفي بشرح الغرض الذي يرمي إليه ، وإنما يتجه عامداً متعمداً إلى تأدية المعنى تأدية جميلة توحي إلى القارئ فكرة العناية بالأسلوب الأنيق

والزيات يُغرب في بعض الأحيان ، ومعنى ذلك أنه يوشي كلامه بالألفاظ الغريبة من حين إلى حين ليحوّل تلك الألفاظ إلى الكلام المأنوس ، وذلك منهج مقبول في إحياء المهجور من المفردات اللغوية ، فلم تُخلَق تلك المفردات مهجورة ، وإنما عاشت دهوراً ثم تناساها الكتّاب والشعراء فأضيفت ظلماً إلى الغريب

والزيات لم يبتكر هذا المنهج بين أدباء العصر الحديث ، فقد اختطه المرحوم الشيخ حمزة فتح الله والمرحوم السيد توفيق البكري ودعانا إليه أستاذنا الشيخ محمد المهدي ، ولكن مزية الزيات هي القصد في الإغراب بحيث لا يقع منه في المقال الواحد غير لفظة أو لفظتين ، وذلك يزيد ثروة القارئ من الوجهة اللغوية بدون أن يوقعه في العَنَت أو الارتباك

ويستطيع الطالب وهو يراجع « وحي الرسالة » أن يقيد هذا النوع من المفردات ، فقد ينفعه ذلك يوم الامتحان ، لأن إحياء تلك المفردات خصيصة أصيلة من خصائص هذا الكتاب.

ولتوضيح هذه المسألة أذكر كلمة « الرِّيازة » بمعنى العمارة ، ثم أترك للطالب حرية الاستقصاء ليقنع لجنة الامتحان بأنه قرأ واستفاد

ويضاف إلى فكرة الإغراب فكرة الاجتهاد ، ومعنى ذلك أن الزيات يحاول إيجاد ألفاظ عربية لبعض الألفاظ الفنية المنقولة من لغات أعجمية ، كالذي صنع في إيثار لفظة « التناظر » بمعنى « السيمترية » Symétrie

ولهذه اللفظة نظائر في كتاب « وحي الرسالة » والطالب مسئول عن تقييد تلك النظائر ، ليقيم الدليل على أنه سايَر المؤلف في ميدان الاجتهاد

الموضوع

قلنا إن هذا الكتاب هو مختار افتتاحيات « الرسالة » في ست سنين ، والرسالة مجلة أدبية ، ولكنها مع ذلك صحيفة أسبوعية تواجه تطورات الحوادث الاجتماعية والوطنية ، والمجتمع في نظر الزيات هو المجتمع المصري والعربي والإسلامي ، ومن هنا جاز أن تكون في أبحاثه الاجتماعية آراء متصلة بالعرب والمسلمين في بلاد لا تصلها بمصر غير روابط اللغة والدين . وهذا المذهب يبدو لقصار النظر بعيداً عن « النزعة المصرية » النزعة التي خلقتها أوربا باسم « القوميات » ولكن المصري الحصيف يدرك جيداً

ونحن نترجم إلى اللغة العربية ، والعرب يعرفون الأخذ بالسنان حين يراد به الاستلام ، ولا يعرفون رفع الشملة إلا للذكر والذكرى والنظر من بعيد ، كما يتحدثون عن العَلَم الذي في رأسه نار

وأما ذكر السنين فهو مفهوم بمعناه وإن لم يرد بلفظه ، وإلا فما هو بقاء الشملة إن لم يقصد بها البقاء طول السنين ؟

ونصيحتي لصاحب الخطاب أن يتعلم قبل أن يتهجم ، فذلك أنفع له وأسلم

***

وبعد ، فخلاصة القول في الحرب والشعر أن نصيب الحادث من الشاعرية لا يقاس بالضخامة ولا يحسب بالعدد . فرب شاعر تناول حياة فرد واحد فصور منها فاجعة خالدة تعيش حين تنسى الحروب التي نشبت في زمانها ، وربما مات فيها مئات الألوف

وقد تستغرق الحروب ما استغرقته الحروب الصليبية ولا يترك لنا معاصروها أثراً يضارع تلك القصيدة الواحدة التي تدور على حياة فرد واحد .

عباس محمود العقاد

أن هـذا المذهب متصل أوثق الاتصال بالوطنية المصرية ، لأن مصر فى سرائر أبنائها الأحرار تريد أن تكون صلة الوصل بين الشرق والغرب ، ويهمها أن تحيي العواطف التى تربط أمم الشرق بعضها ببعض ، وذلك « الإحياء » لا يتيسر إلا بفهم ما يعتلج فى صدور أمم الشرق من آلام وآمال

فإن استطاع الطالب أن يفهم الموضوعات المتصلة بهذا الغرض كان ذلك شاهداً على أنه قرأ الكتاب بعناية وإدراك

— فما تلك الموضوعات ؟ الطالب هو المسئول ، فقد شبعتُ من الابتلاء بمكاره الامتحان فى جامعة القاهرة وجامعة باريس !

وبجانب الموضوعات العربية والإسلامية تنهض الموضوعات المصرية ، الموضوعات التى تمثّل الزيات كاتباً مصريًّا يصوّر ما فى الضمير المصرى من قلق وتوثب وطموح فى ميادين الأدب والسياسة والاقتصاد

فالزيات زار الأقصر وشهد ما خلف المصريون القدماء فى ذلك الوادى الأفْيَح ، فما الذى قال الزيات فى وصف ما رآه ؟ وكيف كانت تلك الزيارة سبباً فى أن يؤمن بأن فكرة « العروبة » لا تطْمِس فكرة « المصرية » ؟ وكيف اطمأن إلى أن تاريخ مصر له فى أعناقنا حقوق ؟

والزيات شهد نموّ المصانع المصرية ، فما الذى قال فى تشجيع المجاهدين من أقطاب الاقتصاد ؟

والزيات تحدث عن بعض المؤلفات الحديثة ، فما هى تلك المؤلفات ؟ وما رأيه فى الأصول التى يقوم عليها التأليف الموصوف بالجودة والابتكار ؟

هل تكلم عن حافظ عفيفى ؟ هل تكلم عن عباس العقاد ؟ هل تكلم عن مصطفى المنفلوطى ؟ هل تكلم عن الرافعى ؟

والزيات ترْجم لبعض رجال العصر الحديث ، فما هى آراؤه فى لطفى السيد ، وأحمد زكى ، ومحمد عبده ، ومصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وطلعت حرب ، وأحمد شوقى ، وحافظ ابراهيم ؟ ؟

وتحدث الزيات مرات كثيرة عن المظاهر الإسلامية والقومية ، فما الذى قال عن رمضان والأعياد وشم النسيم ؟ وما هى الأوصاف الأساسية لمواسم هذه البلاد فى مقالات هذا الأديب الفنّان ؟

وتكلم الزيات عن الطيران ، فما هى المناسبة التى استوجبت ذلك ؟ وما هو المعنى «القوى» الذى قصد إليه فى مقاله عن الطيران ؟

وتحدث الزيات عن الريف ، فماذا قال عن الريف ؟

وتحدث عن الأوقاف ، فماذا قال عن الأوقاف ؟ ولأى غرض شغل نفسه بالأوقاف ؟

وتحدث عن سعد زغلول مرتين أو مرات ، فما هو رأيه فى سعد زغلول ؟

وفى « وحى الرسالة » صفحات مُوجِعات ، فما موضوع تلك الصفحات ؟

وتكلم عن الأدب المزيَّف والأدب الصحيح ، فما الذى أوجب أن يثور هذه الثورة ؟

ونظر إلى الأزهر نظرة لها معان ، فماذا أراد ؟ ولأى سبب شغل نفسه بحاضر الأزهر وماضيه ؟

وتحدث عن « تنظيم الإحسان » فما الذى قال ؟ ومن هو الكاتب الذى شُغِل بهذا الموضوع قبل الزيات ؟

لا يمكن لطلبة السنة التوجيهية أن يقولوا إنهم اطلعوا على كتاب « وحى الرسالة » إلا إن نظروا فى الموضوعات التى أشرت إليها فى هذا المقال بعناية وتدبُّر وإدراك ، لأنها بالفعل أهم أغراض هذا الكتاب ، ولأنها متصلة بشؤون أساسية من معضلات الحياة المصرية فى هذا الجيل

والزيات يحسّ هذه المعانى أصدق إحساس ، لأن قيامه على « الرسالة » قرّبه من المجتمع ، وأخرجه من « العزلة » التى يفرضها ما تفطِر عليه من الاستحياء

بين الإجمال والتفصيل

قال الزيات فى مقدمة « وحى الرسالة » إن مقالاته لم تكن إلا وحى الساعة أو حديث اليوم أو صدى الأسبوع

وتلك دعوى تحتاج إلى بينات !

فليس من المعقول أن يكون الزيات صدق كل الصدق فى هذا القول ، والكاتب يباح له التمويه فى بعض الأحايين ؟!

وإلا فمن الذى يصدّق أن مقال الزيات فى « فنّ الجمال » كان وحى الساعة أو حديث اليوم أو صدى الأسبوع ؟

ومن الذى يصدّق أن ما كتب الزيات عن الفقر والغنى والبؤس والنعيم كان وحى ساعة أو يوم أو أسبوع ؟

هو يخدع نفسه ، أو يخدع قراءه ، ليقول إنه يأتى بالعجب العُجَاب فى لحظة أو لحظات

والحق أنه رجلٌ ممتحَن بنفسه وبالدنيا وبالناس ، فأدبه

الذى ينشره اليوم قد يكون صدًى لتجاربه منذ أكثر من ثلاثين سنة ، والكاتب لا يعرف أين هو من حاضره وماضيه لأنه مشدود إلى قافلة الوجود

يقول الزيات إنه كان يكتب مقالاته هذه فى أصيل السبت من كل أسبوع ، فهل يذكر أحد أنه كان يستطيع رؤية الزيات ولو بالتليفون فى أصائل تلك السُّبوت ؟

كان الزيات يخلو إلى قلمه خلوة صوفية ، وكان فى لحظات الخلوة إلى قلمه يكره الاتصال بمن فى الوجود من أهل وأبناء وأصدقاء

فما الذى كان يصنع الزيات فى تلك الخلوة ؟

كان ينظر إلى معضلات المجتمع بقلب راضته الأفراح والأتراح على فهم ما للوجود وما عليه من محاسن وعيوب

والمزية الأصيلة للزيات أنه يخلو بنفسه وإن كان محفوفاً بالرفاق فى لحظة صفاء . ولن أنسى أبداً أننا كنا نقضى سهرات كوامل ونحن فى أودية بعيدة ، وإن كنا فى مكان واحد ، فلم أكن منه ولم يكن منى ، لأن عالم الفكر غير عالم الشُّهود ، ولأن الإقامة فى ظرف المكان لا تمنع القلب المتحرك من التجول فى آفاق العقول والقلوب والأحاسيس

وهذه الظاهرة الروحية تفسر الهدوء « الظاهر » فى كتاب « وحى الرسالة » . فالكاتبُ يوهم قراءه أن حياته خَلَتْ من الابتلاء بالدنيا والناس ، وأنه يخاطبهم من شُرفة عالية لا تعرف ما يقع فى « الشوارع » من انحطاط وانزلاق

والواقع غير ذلك

الواقع أن الزيات « يعيش » فى دنيا العصر الحديث ، فتجاربه ليست تجاريب من يَعبُر الطريق بلا وعى ولا إحساس ، وإنما هى تجاريب من له فى كل « شارع » دار وجيران . ويا ويل من كان له فى هذه الدنيا دار وجيران ، ولو اعتزل فى حدود الصحراء !

الزيات أديب له مجلة أسبوعية ، ومعنى هذا أنه يعرف الناس من جميع الأجناس ، ومعناه أيضاً أنه مسئول أمام من يباشرون تلك المجلة من عمَّال ومراسلين ومحررين ؛ ثم معناه أنه مسئول أمام المقليات المختلفات فى مصر وفى الأقطار العربية ؛ وذلك يوجب أن يواجه الدنيا بعقل يقظ وقلب حساس

فإن لم تتفق التجارب الصحيحة لمثل هذا الرجل فلمن تتفق ؟

ومن الذى يفهم بلايا المجتمع إذا عزَّ فهمها على مثل هذا الكاتب الأسيف للدنيا والناس ؟

وهل يملك الزيات فى « خلوته الفنية » قدرة الاستهانة بزيارة رفيقة يمنّ بها طفلٌ كريمٌ لا يعرف أن الأديب له خَلَوات ؟

فما معنى ذلك ؟

معناه أن الزيات رجلٌ مسئول ولو أغلق بابه بألوف الأقفال

وفى هذا ما يكفى للحكم بأن موقفه فى فهم المجتمع موقف الأصيل لا موقف الدخيل

فهل يفهم طلبة السنة التوجيهية هذه المعانى ؟

ماذا أريد أن أقول ؟

أنا أريد النص على أن الأدباء الذين ظهروا فى هذا العهد لم يكونوا لاعبين ولا مازحين ، وإن توهم من لا يفهم أن فى أدبهم ميلاً إلى اللعب والمزاح فى بعض الأحيان

إن أدب المصريين فى هذا العصر هو الفَيْصَل بين عهدين : عهد الأدب الوادع الذى كان يعيش أهله فى رعاية الوزراء والأمراء والملوك ، وعهد الأدب المكافح الذى يعيش أربابه فى رعاية مواهبهم الذاتية ، فهم فى الأغلب موظفون أو مدرسون أو صحفيون ، ومن أجل هذا صح القول بأن أكثر أدباء مصر فى هذا العصر رجال أعمال

وهذه الحال أضرتْ من جانب ونفعت من جوانب : أضرتْ حين أيأست الأديب من الأريحية التى كان يعيش فى ظلالها أدباؤنا القدماء ، ونفعت حين قهرت الأديب على الإيمان بأنه لم يُخلَق إلا ليكون قوة فعّالة فى بناء المجتمع الجديد . وكذلك عاش الأديب مرفوع الرأس ، ولو اشترك بقلمه فى خدمة الأحزاب السياسية ، لأنه فى جميع أحواله عضو نافع فى المجتمع ، ولأن موقفه من الأحزاب قد يكون موقف الهداية لا موقف الخدمة . وأضاع الله من ينسى أن رجال السياسة يَدينون لرجال القلم أثقل الدَّين ؛ فبفضل الأقلام صار عندنا سياسة وسياسيون ، ولو كَرِه بعض الجاحدين !

والذى يهمنى هو دعوة الطلبة إلى التعمق فى فهم المؤلفات التى أحدثهم عنها فى هذه المقالات ، فهى مؤلفات متصلة بحياة المجتمع أوثق اتصال . وهى حين تعبِّر عن تألم أصحابها من المجتمع

أو ارتياحهم إلى المجتمع سجِلٌّ صادق لما فى الحياة الاجتماعية من قوة وضعف وتحليق وإسفاف

فإن نظر الطلبة إلى « وحى الرسالة » هذه النظرة رأوا فيه غير ما كانوا ينتظرون ؛ فهو ليس روائع لفظية أو بيانية ، وإنما هو تعبير عن آلام وآمال يحسّها أبناء الجيل الجديد ، حين تصحّ لهم مواجهة ما يعتلج فى صدورهم من آلام وآمال

والزيات لا يتكلم وحده عن تلك المعضلات ، وإنما يتمّ تصوير هذا العصر بتعقب ماظهر فيه من رسائل وقصائد ومؤلفات ، وذلك ما قصد إليه من وضعوا مسابقة الجامعة المصرية لطلبة السنة التوجيهية

وسننظر كيف ينتفع أولئك الطلبة بهذا المشروع المفيد

اختبار سهل

قال الزيات فى مقدمة « وحى الرسالة » إنه أعقب كل فصل بذكر اليوم الذى كتب فيه ، ولكنه مع ذلك أهمل تأريخ بعض الفصول ، فما هى تلك الفصول ؟ ولأي سبب أغفل التأريخ ؟

وأرخ فصلاً بالتاريخ الهجرى وكان يجب أن يؤرخ بالتاريخ الميلادى ، وأرخ فصولاً بالتاريخ الميلادى ، وكان يجب أن تؤرّخ بالتاريخ الهجرى ، فما ذلك الفصل ، وما تلك الفصول ؟ وفى أى المواضع يكون من الحتم أن ينص على تاريخ الهجرة أو تاريخ الميلاد ؟

وأهم فصل هو ما كتبه المؤلف « فى الجمال » وقد وقع فى هذا الفصل غلطتان مطبعيتان : الأولى تنافى المعنى ، والثانية تنافى السياق ، فما هاتان الغلطتان ؟

أنا أنتظر من أحد طلبة السنة التوجيهية جواباً عن السؤال الأخير لأشير إلى اسمه فى مجلة الرسالة إشارة تزيده ثقة بما فطر عليه من الفهم والعقل

وفى مقال الزيات « فى الجمال » فكرة منحرفة بعض الانحراف ، فما هى تلك الفكرة ؟

والزيات « فى الجمال » تلاقى فى بعض مناحيه بكاتب معاصر ، فمن هو ذلك الكاتب ؟

وما شواهد الإعراب والاجتهاد فى هذا المقال وقد احتفل الكاتب لخبره فى أربعة أسابيع ؟

والزيات متأثر فى مناحيه الفنية والذوقية بمؤلف فرنسى مشهور تفرد أحد كتبه بالذيوع حتى طُبع أكثر من مئة مرة ، فمن هو ذلك المؤلف ؟

« يستعلم الطلبة من مدرسى الفلسفة بالسنة التوجيهية »

وذلك الكتاب الذائع قد ظهر أثره فى مقدمة كتاب لأحد أدباء العصر فى مصر ، فمن ذلك الأديب ؟ وما ذلك الكتاب ؟

غرة الكتاب

أهم فصل فى كتاب « وحى الرسالة » هو ما كتب الزيات « فى الجمال » وهو فصل يقع فى ثلاث عشرة صفحة ، وقد ضمّنه ملاحظاته الأساسية على فكرة الجمال وما يحف بها من مشكلات ومعضلات

والزيات لم يبتكر كل هذا الفصل النفيس ، وإنما تجرد عن نفسه وأسبغ على الفكرة أثواباً « موضوعية » ليحوّلها إلى موضوع « كلاسيك » له قواعد وأصول ، وهو مع ذلك من المبتكرين فى أكثر نواحى هذا الموضوع الدقيق ، فما هو الجمال أو ما هى أهم عناصر الجمال فى نظر هذا الكاتب ؟

لا أريد أن أحدّ من حرية الطلبة فى البحث والاستقصاء ؛ ولكنى أعتقد أن من الواجب أن أدلهم على أن الكاتب قد استشهد بآراء عربية وأفرنجية ، ولا يمكن للطالب أن يدرك هذا الموضوع بصفة جدّية إلا إذا رجع إلى مصادر ذلك الاستشهاد ، فما هى تلك المصادر فى مؤلفات العرب واليونان والرومان ؟ وما هى الصور والرسوم التى تشرح الفكرة مع أن ثمنها لا يزيد على بضعة قروش ؟

« يستعلم الطلبة من مدرسى الأدب والفلسفة بالسنة التوجيهية »

ثم ماذا ؟

ثم أقول إنى أنتظر أن يكون فى طلبة السنة التوجيهية مئات يظفرون بالفوز فى مسابقة الجامعة المصرية

ولو شئت لقلت إنى اطلعت على كثير من أجوبة الطلبة عن أسئلة امتحانات النقل والامتحان العمومية فلم أجد ما يرضينى ، لأن أكثر الطلبة يحفظون ولا يفهمون ، ولا قيمة للحفظ إذا انعدم الفهم ، فنحن نريد أن يكون أبناؤنا رجالاً يسمعون ويعقلون ، لا ببغاوات تحكى ما تسمع بلا إحساس ولا إدراك